حول بيتين للخطيل بن أوس

الأستاذ السيد مصطفى غازى

عرض الأستاذ (أبو حيان) فى العدد ٨٣٤ من مجلة الرسالة الغراء مثلا من فهم الشعر القديم فى كتاب «الهجاء والهجاءون» للدكتور (م . محمد حسين) . وكان مدار الحديث حول بيتين للخطيل بن أوس هما :

فدى لبنى ذُبيان رَحل وناقتى عشية يحدى بالرماح أبو بكر
ولكن يدهدى بالرجال مهينه إلى قدر ما إن تقيم ولا تسرى

قالها الخطيل فى حركة الردة ، وأوردها الدكتور فى مستهل حديثه عن نشأة الأحزاب السياسية فى المجلد الثانى من كتابه .

وقد أحس الأستاذ أبو حيان (بالحسرة تلذع قلبه) وهو يقرأ هذين البيتين مضبوطين بهذا الضبط، مرويين على هذا النحو، وهاله أن يتجاوز الدكتور البيت الأول فلا يعلق عليه بشرح أو تفسير أو تحرير . وإلا فكيف مر بكلمة « يحدى » دون أن يحس فى البيت إشكالا ؟ كيف يحدى أبوبكر بالرماح والحادى من يحدو الإبل بغنائه فتنساق خلفه وتطرد وراء حدائه ؟ كيف يمكن أن تكون الصورة حين تأتى الرماح فى موضع الحداء ؟ .. إن الأمر — فى رأى الأستاذ أبى حيان — أيسر من هذا العناء . فالدال فى « يحدى » إنما هى ذال معجمة ذهب إعجامها . والعبارة فى البيت الأول إنما هى « عشية يحذى بالرماح أبو بكر » بمعنى يطعن ويعزق جسده ، كما هو الأصل فى معنى هذا وأخواتها ، كحذ وحذق وحذف وحزم .

ثم انتقل الأستاذ أبو حيان إلى البيت الثانى (فأفزعه أشد الفزع) أن يعلق المؤلف عليه ، شارحا له ، بقوله : « دهديت الحجر فتدهدى دحرجت . هينه كذلك هى بالنص . لعلها من أهاب الإبل والخيل إذا زجرها قائلا: هاب ، هاب فيكون المقصود أن هؤلاء الرجال يزجرون أبا بكر وجيوشه ويدفعونهم إلى قدرهم وحيهم» وهاله أن يروى الدكتور «يدهدى» بصيغة البنى للمفعول ، وأن يجمد عند « فهينه » فيتعسف فى تأويلها هذا التعسف . وإلا فكيف يمكن أن تكون « هينه » معدولة عما ينبغى أن تكون عليه باعتبارها من « أهاب » ؟ ومن هم هؤلاء الرجال الذين يزجرون أبا بكر وجيوشه ؟ أهم رجال أبى بكر يريدهم أن يزجروا أنفسهم ؟ أم هم بنو ذبيان يحماهم يتدحرجون كما تتدحرج الحجارة ؟ .. إن الأمر فى هذا البيت شبيه — فى رأى الأستاذ أبى حيان — بالأمر فى البيت الأول ؛ تصحيف يسير قريب ولكنه أدى إلى ذلك الخلط العجيب . فليست كلمة « فهينه » المؤلفة من فاء عطف لا يدرى ماذا تعطفه وما ذا تعطف عليه ، وفعل لا يعرف من أى أصل هو ، ونون نسوة لا موضع لها ، وضمير غيبة لا مرجع له — ليست هذه الكلمة أو الجملة إلا تصحيفا قريبا لكلمة واحدة ، هى كلمة « مهينة » من الهوان وبذلك يكون البيت .

ولكن يدهدى بالرجال مهينة إلى قدر ما إن تقيم ولا تسرى

ويدهدى بصيغة المبنى للفاعل لا المبنى للمفعول ، والفاعل هو أبو بكر ، وبذلك يستقيم البيت ويطرد المعنى ، دون تعمد للنحو أو مسامحة للصرف أو معارضة للمنطق .

ويبدو لنا أن الأستاذ أبا حيان قد أعجلته الرغبة فى النقد ، وشغله الاهتمام بالتجريح واللمز ، عن أن يرجع إلى المصدر الذى نقل عنه المؤلف بيتى الخطيل . ولو أنه رجع إلى الطبرى فى تاريخه واستطاع التحقيق والتدقيق فى بحثه ، لأفاد من فهم الظروف التى لابست هذين البيتين ، ولاطمأن إلى « يحدى » فى البيت الأول كما اطمأن المؤلف ، ولم يجزم هذا الجزم العجيب بأن الدال إنما هى ذال معجمة ذهب إعجامها . فقد روى الطبرى فى تاريخه أن بعض المرتدة ، وفيهم نفر من ذبيان أعدوا العدة للاغارة على المدينة ليلا بعد أن خلفوا بعض رجالهم فى ذى حسى ليكونوا لهم ردءا . فأسرع أبو بكر للقائهم « وخرج فى أهل المسجد على النواضح إليهم ، فأنفسن العدو ، فأتبعهم المسلمون على إبلهم حتى بلغوا ذا حسى ، فخرج عليهم الردء بأنعام(١) قد تفخروها وجعلوا فيها الحبال ، ثم دعدعوها بأرجلهم فى وجوه الإبل ، فتدهده كل نعم فى طوله(٢) ، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها — ولا تنفر من شىء نفارها من الأنعام — فماجت بهم ما يملكونها حتى دخلت بهم المدينة ، فلم يصرع مسلم ولم يرهب . فقال فى ذلك

(١) جمع نعم وهو الزق أو ما كان للسمن خاصة .
(٢) الطول — كالطيل — حبل يشد به قائمة الدابة

الخطيل بن أوس أخو الحطيئة بن أوس ... الأبيات [1] » اهـ .

فأبو بكر ورجاله قد عادوا إلى المدينة إذن دون أن يصيب أحدهم مكروه (فلم يصرع مسلم ولم يصب) ، ولم يطمن أبو بكر أو يمزق جسده كما أراد الأستاذ أبو حيان أن يفرض ذلك علينا فرضاً . وعلى ذلك فلا محل للجزم بأن الدال فى « يحدى » إنما هى ذال معجمة ذهب إعجامها . ولا غرابة بعد ذلك فى أن « يحدى » أبو بكر بالرماح ، وأن يساق بها سوقاً كما تساق الإبل بالحداء . فالاستعارة فى ذلك مألوفة مأنوسة ، واستعمال الحداء هنا على سبيل التهكم كاستعمال القرى فى معرض التنديد بالقتل ، وكاستعمال البشرى فى معرض التهديد بالعذاب .

ولو أن الأستاذ أبا حيان رجع إلى نص الطبرى ، ولم تعجله الرغبة فى النقد والتجريح ، لعدل عما انزلق إليه فى البيت الثانى من تأويل . فالطبرى يحدثنا بأن المرتدة هم الذين دهدهوا الأنحاء فى وجه أبى بكر ، وأن أبا بكر هو الذى دهده بهذه الأنحاء ، دهدهه بها الرجال ، رجال بنى ذبيان فيمن معهم من المرتدين . وعلى ذلك فالقصة كما رواها الطبرى تقتضى أن يكون « يدهدى » بصيغة المبنى للمفعول لا المبنى للفاعل . وإذاً فلا محل للجزم بأن الفعل مبنى للفاعل ، وأن الفاعل أبو بكر ، وأن المقصود بالرجال هنا المرتدة من بنى ذبيان . وليس ببعيد أن تكون « فهبنه » التى تشكك المؤلف فى أمرها قائلا : (كذلك هى بالنص) والتى حاول تأويلها قائلا : (لعلها من أهاب الإبل والخيل إذا زجرها قائلا هاب هاب) — ليس ببعيد أن تكون هذه الكلمة من « الهاب » وهو زجر الإبل عند سوقها فقد جاء فى لسان العرب فى مادة (هـ ى ب) : « والهاب : زجر الإبل ، عند السوق ... وأما الإهابة : فالصوت بالإبل ودعاؤها » . فالهاب إذن زجر الإبل وتنفيرها ، والإهابة دعاؤها وجمعها . والهاب — كما لا يخفى على الأستاذ أبى حيان — مصدر من الفعل الثلاثى . فأى غرابة فى أن يكون الثلاثى من هذه المادة مستعملا ؟ وكيف تكون (هاب) بعد ذلك مجهولة الأصل والمصدر منها موجود فى معاجم اللغة ؟ أما عن ضمير الغيبة فى (فهبنه) فرجعه أبو بكر فى البيت الأول . والفاء تعطف « هاب » على « يدهدى » . ويدهدى فعل مضارع ، ولكنه يدل على المضى هنا ، وإنما عدل به عن المضارع لاستحضار صورة الحادث فكأنه يقع الآن أمام أعيننا . والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفى منها بما ورد فى السيرة : « فيأخذ أبو اليسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ »[1] . وإذا كان استعمال نون النسوة هنا غريباً ، وليس هناك ما يقطع بأن الشاعر القديم لم يقصد إلى استعمالها قصداً . وما أكثر ما كان الشاعر القديم يخرج على قوانين النحو والصرف ليقيم شعره ! وما أكثر ما كان يخرج على هذه القوانين نتيجة السهو والخطأ . فإذا أخذنا بعد ذلك برواية الشطر الثانى من البيت (إلى قدر ، ما إن يقيم ولا يسرى) — وهى رواية أوردها ناشر تاريخ الطبرى فى حاشية الكتاب[2] إذا أخذنا بهذه الرواية ، فقد استقام البيت واطرد المعنى ، إذ أن عبارة (ما إن يقيم ولا يسرى) تعود بذلك إلى أبى بكر مصورة حاله حين عاد إلى المدينة مضطرباً مفزعاً قد أخذت منه الحيرة والمفاجأة كل مأخذ . وعلى ذلك تكون قراءة البيت :

ولكن يدهدى بالرجال فهبنه إلى قدر ، ما إن يقيم ولا يسرى

أى أن رجال بنى ذبيان يدهدهون أبا بكر بالرماح ، فيزجرونه إلى قدره وقضائه ، وقد سدت فى وجهه المسالك ، وأعيته الحيلة وأخذت منه الحيرة ، ونالت منه المفاجأة ، فهو لا يقيم ولا يسرى

ذلك — فيما نرى — أدنى إلى سياق القصة ، وأقرب إلى روح العلم ، وما ينبغى لطالب من الأمانة فى التدقيق ، ومن البعد عن الريب والجزم حين تحتمل المسائل أكثر من وجه . ولعل الأستاذ أبا حيان واجد فى كلمتنا هذه ما يشيع الرضا فى قلبه فلا يحس (بالحسرة تلذعه) ، وما يعيد الطمأنينة إلى نفسه فلا يعود (يشكو إلى الله) أن يتهجم الجامعيون على الشعر القديم فيما يعرضون له من بحوث .

السيد مصطفى غازى
ليسانس فى الآداب من جامعة فاروق الأول

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ط ليدن جـ ٤ ص ١٨٧٤، ١٨٧٥، ١٢ ، ٣٣

(١) السيرة النبوية لابن هشام ط الحلبى جـ ٢ ص ٦٩

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ط ليدن جـ ٤ ص ١٨٧٥